

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٠ - سورة غافر

وسميت (المؤمن) قال المهايي : سميت به لاشتمالها على كلمات مؤمن آل فرعون ، المتضمنة دلائل النبوة ورفع الشبه عنها ، والمواعظ والنصائح وسلامته عن أعدائه .
وعما أخذوا به ، وهي من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة غافر وسورة الطول .
وهي مكية وآيها ثمانون وخمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

« حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » الكلام في مفتتح هذه السورة وتاليه ، كالذى سلف في (ألم السجدة) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

[٤] (مَا يُجَدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرِزُونَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ)

« غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ » أى المن والفضل « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ » أى المرجع والجزاء « مَا يُجَدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ما يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها ، إلا الذين جحدوا توحيده . قال الزمخشري : سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر . والمراد الجدل بالباطل ، من الطعن فيها والقصد إلى إحاض الحق وإطفاء نور الله . وقد دل على ذلك قوله ^(١) (وَجَدُّوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) فأما الجدل فيها ، لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقارحة أهل العلم في استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله . وقوله ^(٢) (جدال في القرآن كفر) وإبراده منكرا ، تمييز

(١) [٤٠ / غافر / ٥] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في السند بالصفحة رقم ٢٥٨

من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٤٩٩ (طبعة المعارف) .

منه بين جدال وجدال . انتهى « فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ » أى للتجارات ، وتمتعهم بالتجوال والترداد ، فسألهم إلى الزوال والنفاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ » أى الذين تمزبوا على الرسل وناصربوهم « مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد سماع أخبارهم ومشاهدة آثارهم « وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ » أى ليتمكنوا منه ، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل . من (الأخذ) بمعنى الأمر . والأخذ الأسير « وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ » أى قابلوا حجج الرسل بالباطل من جدالهم « لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » أى ليزيلوا به الأمر الثابت بالحجة الصحيحة . لكنه لا يندحض وإن كثرت الشبه . لما أنه الثابت فى نفسه المقرر بذاته « فَأَخَذْتَهُمْ » أى بالمذاب الدينوى المعروف أخباره ، المشهود آثاره « فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى فى هذه الدار . فيعتبر به عقاب تلك الدار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)
 « وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ » قال (١)
 ابن جرير: أى وكما حق على الأمم التى كذبت رسليها، التى قصصت عليك ، يا محمد ، قصصها، وحل بها عقابى . كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، الذين يجادلون فى آيات الله . لأنهم أصحاب النار . ثم نوّه بالمؤمنين ، وبما أعد لهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

[٨] (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٩] (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ» أى من الملائكة. وقد سبق في تفسير آية^(١) (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) في الأعراف ، كلام في حملة العرش ، فراجعه «وَمَنْ حَوْلَهُ» يعنى الملائكة المقرَّبين «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ» أى: ويقرِّون بأنه لا إله لهم سواه. ويشهدون بذلك لا يستكبرون عن عبادته. وفائدة التصريح بإيمانهم، مع جلالة، هو إظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله ، والإشعار بعملة دعائهم للمؤمنين. حسبما ينطق به قوله تعالى «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» فإن المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأتمها ، وأدعى الدواعى إلى النصح والشفقة . وفي نظم استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم ، من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم ، إيدان بكال اعتنائهم به ، وإشعار بوقوعه عند الله تعالى

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

في موقع القبول « رَبَّنَا » أى يقولون ربنا « وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا » أى شملت رحمتك وأحاط بالكل علمك « فَأَغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى صراطك المستقيم بمتابعة نبيك فى الأقوال والأعمال والأحوال « وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى عمل صالحاً منهم ، ليتم سرورهم بهم « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ » أى : عقوبتها وجزاءها « وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ » أى : لبغضه الشديد لكم ، أعظم من بغض بعضكم لبعض . وتبرؤ كل من الآخر ولعنه حين تمذبون كما قال تعالى (١)

(يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا) أو أعظم من مقتكم أنفسكم وذواتكم . فقد يعقون أنفسهم حين تظهر لهم هيأتها المظلمة وصفاتها المؤلمة ، وسواد الوجه الموحش وقبح النظر المنفر « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَكْفَرُوا » أى تدعون على أسنة الرسل عليهم السلام ، إلى الإيمان به سبحانه ، فتكفرون كبراً وعتواً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلْتُنَّيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَلْتُنَّيْنَا فَأَعْتَرَفْنَا بِدُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى

خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)

«قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلْتُنَّيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَلْتُنَّيْنَا» أى أنشأتنا أمواتا مرتين . وأحييتنا فى النشأتين كما قال تعالى (٢) «وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» قال قتادة : كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم ، فأحياهم الله فى الدنيا . ثم أماتهم الموتة التى لا بد منها . ثم أحياهم للبعث يوم القيامة . فهما حياتان وموتتان «فَأَعْتَرَفْنَا بِدُنُوبِنَا» أى : فأقرنا

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٨] .

بما عملنا من الذنوب في الدنيا . وذلك عند وقوع العقاب المرتب عليها ، وامتناع الحيمص عنه « فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ » أي : فهل إلى خروجنا من النار ، من سبيل ، لنرجع إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل . قال الزمخشري : وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط . وإنما يقولون ذلك تمللاً وتجييراً . ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك . وهو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

[١٣] (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ)

« ذَٰلِكُمْ » أي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ، وأن لا سبيل إلى خروج قط « بِأَنَّهُمْ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا » أي بسبب إنكاركم أن الألوهة له خالصة ، وقولكم ^(١) (أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا) وإيمانكم بالشرك « فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » أي فالتضاء له وحده لا للغير . فلا سبيل إلى النجاة لعلوه وكبريائه . فلا يمكن أحدا رد حكمة وعقابه « هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ » أي من الريح والسحاب والبرق والبرق والصواعق ونحوها « وَيُنزِلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا » أي مطرا . وإفراده بالذكر من بين الآيات ، لعظم نفعه ، وتسبب حياة كل شيء عنه « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ » أي . وما يتعظ بآياته تعالى ، إلا من يرجع إليه بالتوبة والإنابة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[١٥] (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

« فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى فاعبدوه مخلصين له الدين، عن شوب الشرك « وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » أى غاظهم ذلك « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ » أى رفيع درجات عرشه كقوله ^(١) (ذِي الْمَعَارِجِ) وهى مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش . وهى دليل على عزته وملكوته . أو هو عبارة عن رفعة شأنه وعلو سلطانه وكلماته ، غير المتناهية « ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ » أى الوحي والعلم اللدنى الذى تحيا به القلوب الميتة « مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أى أهل عنايته الأزلية ، واختصاصه للرسالة والنبوة « لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ » أى يوم القيامة الكبرى ، الذى يتلاقى فيه العبد بربه ليحاسبه على أعماله ، أو العباد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ هُمْ بَبْرُزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ،

لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

[١٧] (الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« يَوْمَ هُمْ بَبْرُزُونَ » أى من قبورهم . أو ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو بناء « لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ » أى من أعمالهم وأعيانهم وأحوالهم . وقوله « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » ينادى به الحق سبحانه ، عند فناء الكل . أو وقت التلاقى والبروز . فيجيب هو

(١) [٧٠ / المعارج / ٣] .

وحده « لِلَّهِ الْوَحِيدِ » أى المتفرد بالملك « الْقَهَّارِ » أى الذى قهر بالغلبة كل ما سواه « الْيَوْمَ نُجْزِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى بإبصال ما يستحق كل منهم إليه ، من تبعات سيئاته وثمرات حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينٍ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

« وَأَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ » أى الواقعة القريبة « إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ » أى من أهواله ترتفع القلوب عن مقارها ، فتصير لدى الحلق « كَظْمِينٍ » أى ممتلئين غمًا ، بما أفرطوا من الظلم « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ » أى قريب يهتم لشأنهم ، فيخفف عنهم غمومهم « وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » أى من يشفع فى تخفيفها عنهم . إذ لا تقبل شفاعة فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[٢٠] (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[٢١] (أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

[٢٢] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ، إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[٢٣] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ)

[٢٤] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامٰنَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ مُّكَذَّبٌ)

[٢٥] (فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ

وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ)

« يَعْلَمُ خَاسِنَةَ الْعٰغَيْنِ » أى نظراتها الخائنة. وهى الممتدة إلى مالا يحل « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » أى تكفه من الضمائر والأسرار « وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ » أى بالعدل « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْءً » أى لأنهم لا يقدرّون على شيء « إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ » يعنى حصونهم وقصورهم وعددهم « فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامٰنَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ مُّكَذَّبٌ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ » أى بآيات نبوته « مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ » أى : قالوا أعيّدوا عليهم القتل ، كالذى كان أولًا . واستبقوا نساءهم للخدمة « وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ » أى : وما مكرهم فى دفع ما أراد الله من ظهور دينه ، إلا فى ضياع . إذ هو كالغناء الذى يقذفه تيار الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ وَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ وَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ »

أى ما أنتم عليه من عبادة الأصنام « أَوْ أَنْ يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » أى فساد مملكتى .
إذ يتفق الشكل على متابعتها وإجراء أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ
بِيَوْمِ الْحِسَابِ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ »
أى التجأت إليه وتوكلت عليه ، فهو ناصر دينه وممعر أهله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا
أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ
كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ)

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ » أى من فرعون وملئه
« أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ » أى من عذاب الدنيا إن
تعرضتم له . وقد أشار الخشبرى إلى ما فى طى هذا القول من اللطائف والأسرار ، بما ملخصه :
إن هذا المؤمن استدرجهم فى الإيمان باستشهاده على صدق موسى ، بإحضاره عليه السلام من
عند من تنسب إليه الربوبية ، بينات عدة لا بينة واحدة . وأتى بها معرفة . معناه البينات العظيمة
التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك ، ليلين بذلك جماهم ، ويكسر من سورتهم . ثم أخذهم

بالاحتجاج بطريق التقسيم، فقال: لا يخلو من أن يكون صادقا أو كاذبا. فإن يك كاذبا فضرر كذبه عائد عليه. أو صادقا فيصيبكم، إن تعرضتم له، بعض الذي يعدكم. وإنما ذكر (بعض) في تقدير أنه نبي صادق، والنبي صادق في جميع ما يعدُّ به، لأنه سلك معهم طريق المناجحة لهم والمداواة. فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم، وأدخل في تصديقهم له، ليسمعوامنه ولا يردوا عليه صحته. وذلك أنه حين فرضه صادقا، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعدُّ. ولكنه أوردته (يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ) ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، ليربهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأثنى عليه، فضلا عن أن يكون متعصبا له. وتقديم (الكاذب) على (الصادق) من هذا القبيل.

قال الناصر: ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا، قوله تعالى (١) (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ وَ قُدِّمَ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ وَ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) فقدم الشاهد أماره صدقها على أماره صدق يوسف، وإن كان الصادق هو يوسف، دونها، لرفع التهمة وإبعاد الظن، وإدلالا بأن الحق معه ولا يضره التأخير لهذه الفائدة. وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة، مافي قصة يوسف مع أخيه. إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه. انتهى. «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» قال الزمخشرى: يحتمل أنه إن كان مسرفا كذابا، خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر، فتمتخلصون منه. وأنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة، ولما عضده بالبينات.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَقَوْمِ لَكُمْ أُمْلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا، قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

(١) [١٢ / يوسف / ٢٦ و ٢٧].

« يَقَوْمٍ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ » أى عالين وقاهرين، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم بأنفسكم ، ولا تعرضونا لعذابه تعالى « فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى » أى ما أشير عليكم إلا ما أستصوبه من قتله . إذ البأس السماوى من أجل قتله ، أمر متوهم . فاتباعه غلط « وَمَا أَهْدِيكُمْ » أى بإراءة رأى قتله « إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » وهو دفع تبدل دينكم وإظهار الفساد فى الأرض ، بإظهار أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنْى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ)

[٣١] (مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)

« وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنْى أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من قتله « مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ » أى الطوائف الهالكة بالتكذيب « مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ » أى جزائهم من الفرق « وَعَادٍ » أى من الریح العقيم « وَثَمُودَ » أى من الصيحة « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من الأمم المكذبة ، مما يدل على أن الهلاك سنة مستمرة لأهل التكذيب ، إذ لم يكن لهم ذنب آخر يوجب « وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ » أى فلا يعاقبهم بغير ذنب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَيَقَوْمِ إِنْى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ)

« وَيَقَوْمِ إِنْى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ » يعنى يوم القيامة ، أى عذابه . سعى بذلك لما جاء فى حديث^(١) (إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ،

(١) لم أعر على هذا الحديث .

فخطر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضاً (أى : من هول فزع النفخة . وقال قتادة : ينادى كل قوم بأعمالهم . ينادى أهل الجنة أهل الجنة وأهل النار أهل النار . وقيل لمفاداة أهل الجنة أهل النار ^(١)) (أَنْ قَدَّ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ) ومناداة أهل النار أهل الجنة ^(٢)) (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) . واختار البغوي وغيره ؛ أنه سُمِّيَ لمجموع ذلك . أى لوقوع الكل فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

« يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ » أى ذاهبين فراراً من الفزع الأكبر ^(٣) (كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) « مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى من عذابه، من مانع، لتقرر الحجة عليكم « وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ » أى بزيفه عن صراط ربه « فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » أى من حجة ولا مرشد إلى النجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » أى من قبل مجئ موسى بالحجج البينة

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] .

(٢) [٧ / الأعراف / ٥٠] .

(٣) [٧٥ / القيامة / ١١ و١٢] .

والبراهين النيرة ، على وجوب عبادته تعالى وحده . كقوله (١) « أَرَأَيْتُمْ لِمَ تَقُولُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » « فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ » أى مع ظهور استقامته الكافية فى الدلالة على صحة ما جاءكم به ، فلم يزل يقررها « حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ » أى مات « قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا » أى يقرر حججه . فقطعتم من عند أنفسكم ، بعدم إرسال الله الرسول ، مع الشك فى إرسال من أعطاه البينات ، من فرط ضلالكم « كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ » أى فى التشكيك عند ظهور البراهين القطعية « مُرْتَابٌ » أى شك مع ظهور لواحق اليقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ» أى برهان «أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» أى بطل للحق ، لا يقبل الحجة . جبار فى المجادلة . الذى فيصدر عنه أمثال ما ذكر ، من الإسراف والارتباب والمجادلة فى الباطل لطمس بصيرته ، فلا يكاد يظهر له الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هِمَنْ أُنِىٰ صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) [٣٧] (أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ، وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كِيدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هِمَنْ أُنِىٰ صِرْحًا» أى قصرًا عاليًا ظاهرًا لكل أحد

(١) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

« لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ » أى طرقها « فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ آلِهِ مُوسَىٰ » أى لأسأله عن إرساله ، أو لأقف على كنهه « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ وَكَذِبًا » قال ابن جرير^(١) : أى لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدعى ، من أن له فى السماء رباً أرسله إلينا « وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ » أى سبيل الرشاد لما طبع على قلبه ، من كبره وتجبره وإسرافه وارتياحه « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ » أى خسار وهلاك ، لنهاب نفقتة على الصرح سدى ، وعدم نيله ، مما أرادته من الاطلاع ، شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَأْتِي قَوْمٍ أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)

« وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَأْتِي قَوْمٍ أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ » أى طريق الصواب الذى ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه . ثم أشار إلى تفصيل ما أجمله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَأْتِي قَوْمٍ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)

« يَأْتِي قَوْمٍ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ » أى تمتع يسير ، لسرعة زوالها « وَإِنَّ الْآخِرَةَ » التى يوصل إليها سبيلها « هِيَ دَارُ الْقَرَارِ » أى الاستقرار والخلود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ

أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

مؤمنٌ فَاَوْ لَاسِكًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ « أى بغير تقدير وموازنة بالمعمل . بل أضعافاً مضاعفة . قال الزمخشري : قوله (بغير حساب) واقع في مقابلة (إلا مثلها) بمعنى أن جزاء السيئة له حساب وتقدير ، لثلا يزيد على الاستحقاق . فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب ، بل ما شئت من الزيادة والكثرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَيَقَوْمٍ مَّالٍ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ)

[٤٢] (تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مِمَّا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ)

« وَيَقَوْمٍ مَّالٍ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مِمَّا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ » أى بوجوده علم ، إذ لا وجود له « وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ » أى الغالب الذى يقهر من عصاه « الْغَفَرِ » أى الذى يستر ظلمات نفوس من أطاعه ، بأنواره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ)

وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

[٤٤] (فَسْتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ » أى

الذى تدعونني إلى عبادته ، ليس له دعوة في الدنيا لدفع الشدائد والأمراض ونحوها ،

ولا في الآخرة لدفع أهوالها ، على ما قاله المهايي . أو لا دعوة له في الدارين لعدمه بنفسه ، واستحالة وجوده فيها ، على ما قاله القاشاني . وقال الشهاب : عدم الدعوة عبارة عن جماديتها وأنها غير مستحقة لذلك . وسياق (لَا جَرَمَ) عند البصريين أن يكذب (لَا) ردًا لما دعاه إليه قومه و (جَرَمَ) بمعنى كسب . أي وكسب دعاؤهم إليه بطلان دعوته . أي ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته . ويجوز أن يكون (لَا جَرَمَ) نظير (لا بد) من الجرم وهو القطع . فكما أنك تقول (لا بد لك أن تفعل) والبد من التبديد الذي هو التفريق ، ومعناه لا مفارقة لك من فعل كذا ، فكذلك (لَا جَرَمَ) معناه لا انتطاع لبطلان دعوة الأصنام . بل هي باطلة أبدا . هذا ما يستفاد من (الكشاف) .

وفي (الصحاح) : قال الفراء : (لَا جَرَمَ) كلمة كانت في الأصل بمنزلة (لا محالة ، ولا بد) فجرت على ذلك وكثرت حتى تحوالت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة (حقا) فلذلك يجب عنها باللام . ألا تراهم يقولون (لا جرم لآتينك) وقد حقق الكلام فيها ابن هشام في (المغني) في بحث . والجلال في (همع الهوامع) أثناء بحث إن والقسم ، فانظرها . « وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ » أي في الضلالة والطغيان وسفك الدماء « هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَقَدَ كُرُونُ مَا أَقُولُ لَكُمْ » أي من النصح عند معاينة الأهوال وما يحق بك « وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ » أي وأسلم أمرى إليه وأجعله له وأتوكل عليه ، فإنه السكافي من توكل عليه « إِنَّ اللَّهَ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ » أي فيعلم الطمع منهم والعاصي ، ومن يستحق الثوبة والعقوبة .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَوَقَّهٗ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)
« فَوَقَّهٗ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا » أي فرفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون ، بإيمانه وتصديق رسوله موسى ، مكرهه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه ، من العذاب والبلاء ، فنجاه منه « وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ » أي بفرعون وقومه « سُوءُ الْعَذَابِ » يعني الغرق أو النار . وعلى الأول ، فقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا

ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

[٤٧] (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا

لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَتَمُّ مَغْنُونًا عَمَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ)

[٤٨] (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)

«النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا» جملة مستأنفة مبينة لكيفية نزول العذاب بهم .
على أن (النَّارُ) مبتدأ وجملة (يُعْرَضُونَ) خبره . وعلى الثانى ، فالنار خبر محذوف وهو
خبر العذاب السبي . أو هي بدل من (سورة العذاب) . والمراد عرض أرواحهم عليها دائما .
واكتفى بالطرفين المحيطين - الغدو والعشي - عن الجميع . وبه يستدل على عذاب القبر والبرزخ .
وقامه الله تعالى ، بمنه .

قال السيوطى : وفى (العجائب) للكرمانى : فى هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر .
لأن المعطوف غير المعطوف عليه . يعنى قوله تعالى « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » أى هذا العرض
مادامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة يقال لهم « أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو
عذاب جهنم . لأنه جزاء شدة كفرهم « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ » أى يتخاصمون فيها ،
الأتباع والتبوعون « فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » أى أتباعاً
كالكرهين « فَهَلْ أَتَمُّ مَغْنُونًا عَمَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ
فِيهَا » أى نحن وأنتم . فكيف نغنى عنكم ؟ ولو قدرنا لأغنيانا عن أنفسنا « إِنَّ اللَّهَ قَدَّ
حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » أى بأن أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ولا معقب لحكمه .
أو بأن قدر عذاباً لكل منا لا يدفع عنه ، ولا يتحملة عنه غيره . قال الشهاب : وهذا أنسب
بما قبله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزَانَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ)

« وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزَانَةِ جَهَنَّمَ » أى لما أسوا من التخفيف عند الحاجة « ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ » أى يدفع عنا يوماً من أيام العذاب ، أو ألم يوم وشدته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قَالُوا أَوْ لَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، قَالُوا بَلَىٰ ، قَالُوا فَادْعُوا ، وَمَا دَعَوْا إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« قَالُوا أَوْ لَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى المتكاثرة على صدقهم ، المنذرة بهذه الشدة « قَالُوا بَلَىٰ » أى جاءوا بها وأخبروا مع البينات « قَالُوا فَادْعُوا » أى إن كان ينفعكم ، وهيهات « وَمَا دَعَوْا إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى فى ضياع لا يجاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » أى لننصرهم فى الدارين . أما فى الدنيا ، فبإهلاك عدوهم واستئصاله عاجلاً ، أو بإظهارهم بعدوهم وإظهارهم عليه ، وجعل الدولة لهم والعافية لأتباعهم . وأما فى الآخرة ، فبالنعيم الأبدى والحبور السرمدى . و (الْأَشْهَادُ) جمع شاهد ، وهم من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظالماً . أو جمع شهيد ، كأشراف وشريف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

«يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» قال ابن جرير^(١) :

ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم لا يعتذرون إن اعتذروا إلا بباطل . وذلك أن الله قد أعذر إليهم في الدنيا ، وتابع عليهم الحجج فيها ، فلا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام بالكذب ، بأن يقولوا^(٢) (وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ولذا كانت لهم اللعنة ، وهي البعد من رحمة الله وشر ما في الدار الآخرة من العذاب الأليم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ)

«وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ» . أى ما يهتدى به . فكذب به فرعون وقومه

كما كذبت قريش «وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ» أى وتركنا عليهم بهمه من ذلك التوراة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

«هُدًى» أى بياناً لأمر دينهم وما أزمناهم من شرائعها «وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ»

أى لذوى الحجى والعقول منهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء الرابع والمشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

« فَأَصْبِرْ » أى إذا تلوت ما قصصناه عليك للناس ، فاصبر على أذى المشركين واصدع بما تؤمر « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى بنصرك على من خالف ، لاخلفه وهو منجزه . واذكر نبأ موسى وفرعون « وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » أى سله غفرانه وعفوه « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » كقوله تعالى^(١) « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ » .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ » أى يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة ، بلا برهان ولا حجة من الله « إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ » أى : إلا تكبر عن الحق وتعظم عن التفسر ، وعمطين جاءهم به ، حسداً منهم على الفضل الذى آتاك الله ، والكرامة التى أكرمك بها من النبوة « مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ » قال ابن جرير^(٢) : أى الذى حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه . لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وليس بالأمر الذى يدرك بالأمانى . وقد قيل : إن معناه إن فى صدورهم إلا عظمة ، ما هم بيالغى تلك العظمة ، لأن الله مدلتهم « فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » قال ابن جرير^(٣) :

(١) [٥٠ / ق / ٣٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٦ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٧٧ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى فاستعجر بالله يا محمد ، من شر هؤلاء الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض فى قلبك منه شيء « إِنَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » أى لما يقولون وبما يعملون، فسيجازيهم .

تنبيه :

قال كعب وأبو العالية : نزلت هذه الآية فى اليهود . وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم ، وأنهم يملكون به الأرض . فأمر ﷺ أن يستعيد بالله من فتنته . قال ابن كثير : وهذا قول غريب ، وفيه تمسف بعيد . وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم . ولم يذكره ابن جرير ، على ولعه بالغريب والضعيف .

وفى (الإكليل) : ليس فى القرآن الإشارة إلى الدجال إلا فى هذه الآية ، أى على صحة هذه الرواية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » أى : لإنشأتهما وابتداعهما من غير شيء ، أعظم من خلق البشر « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الجهل عليهم . ولذا يجعلون إعادة الشيء أعظم من خلقه عن عدم ، مع أنه أهون وأيسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ ، قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ)

« وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ » أى ما يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً ، وهو

مثل الكافر الذى لا يتأمل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ماشاء ، ويؤمن به - والبصير الذى يرى بعينيه ما شخص لها ويبصره . وذلك مثل المؤمن الذى يرى بعينيه حجج الله فيتفكر فيها ويتعظ ، ويعلم ما دلت من توحيد صانعه وعظيم سلطانه « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى ولا يستوى أيضاً المؤمنون بالله ورسوله ، المطيعون لربهم « وَلَا الْمُسِيءِ » وهو الكافر بربه ، العاصى له ، المخالف أمره « قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ » أى حججه تعالى . فيعتبرون ويتعظون . أى لو تذكروا آياته واعتبروا بها ، لعرفوا خطأ ما هم مقيمون عليه ، من إنكار البعث ، ومن قبح الشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)
 « إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا » أى فأيقنوا بحجيتها وأنكم مبعوثون ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يصدقون بحجيتها . يعنى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

« وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أى اعبدوني أُنْبِكُمْ . قال الزمخشري : والدعاء بمعنى العبادة ، كثير فى القرآن . ويدل عليه قوله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » أى صاغرين أذلاء . قال الشهاب : إطلاق الدعاء على العبادة مجاز ، لتضمن العبادة له . لأنه عبادة خاصة أريد به المطلق . وجعل الإثابة لترتبها عليها استجابة ، مجازاً أو مشاكلة . وإنما أول به لأن ما يمدده يدل عليه . والمقام يناسبه

الأمر بالعبادة . وقد جَوَزَ أن يراد بالدعاء والاستجابة ظاهرهما . ويراد بالعبادة الدعاء مجازاً ، لأنه باب من العبادة عظيم ، وفرد من أفرادها نخيم . قال الشهاب : ولوقيل لاحاجة إلى التجوز ، لأن الإضافة المراد بها العهد هنا ، فيفيد ما ذكر من غير تجوز - لكان أحسن . انتهى .
وعلى الوجه الثاني - وهو أن المراد بالدعاء السؤال - اقتصر كثير من المفسرين . قال المهايى (أَسْتَجِبْ لَكُمْ) لأن الدعاء من العبد غاية في التذلل لربه ، وهو محبوب لربه . فإذا أتى العبد بمحبوب الرب عظمه بالاستجابة . وإذا لم يستجب له في الدنيا عوضه في الآخرة . ولحبه التذلل أمر العباد بالعبادة ، فإن استكبروا كان لهم غاية الإذلال . اه . وقال الفاشاني : الآية في دعاء الحال . لأن الدعاء باللسان مع عدم العلم بأن المدعو به خير له أم لا ، دعاء المحجوبين . وأما الدعاء الذي لا تتخلف عنه الاستجابة ، فهو دعاء الحال بأن يهيئ العبد استعداداً لقبول ما يطلبه ، ولا تتخلف الاستجابة عن هذا الدعاء . كمن طلب المغفرة ، فتاب إلى الله ، وأتاب بالزهد والطاعة . انتهى .

وتقدم في آية (١) (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) فوائد تناسب هذا المقام ، فلترجع . ثم أشار تعالى إلى أنه كيف لا يلزم العباد عبادته ، وقد أنعم عليهم بما يقتضى شكره بالعبادة ، مما أجلاه منافع الليل والنهار ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

[٦٢] (ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنى تُؤْفَكُونَ)
«اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ» أى الله الذى لاتصلح الألوهية إلا له ، ولا تنبغى عبادة غيره ، هو الذى جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، فتستردوا بالراحة فيه ،

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

ما فاتكم من القوى في العمل بالنهار « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى أن يبصر فيه أو به لتتحركوا لتحقيق الأرباح الدنيوية والدينيوية . فقد تفضل الله عليكم بهما وبما فيهما « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » أى ليشكروه بعبادته « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَآنَى تُؤْفَكُونَ » أى عن طاعته إلى إثبات الشريك وعبادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَمْجِدُونَ)

« كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَمْجِدُونَ » أى من الأمم المتقدمة الهالكة .
أى فسلكتم أنتم معشر قريش مسلكهم ، وركبتهم محجبتهم في الضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَّ رَكَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا » أى تستقرون عليها وتسكنون فوقها « وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » أى مبنية مرفوعة فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم وقوام دنياكم . وقد فسر (البناء) بالقبعة المضروبة . لأن العرب تسمى المضارب (أبنية) ، فهو تشبيه بليغ ، وهو إشارة إلى كرميتما .
قاله الشهاب « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ » أى يجعل كل عضو في مكان يليق به ، ليتم الانتفاع بها ، فاستدلوا بذلك على كمال حكمته « وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ » أى لذيات المطاعم والمشارب لتشكروه ووحده « ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَّارَكُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » أى الذى لاتصلح الربوبية إلا له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« هُوَ الْحَيُّ » أى الذى لا يموت ، الدائم الحياة ، وكل شىء سواه فمقطع الحياة غير دائمها « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى مفردين له الطاعة ، لا تشركوا فى عبادته شيئاً « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى الثناء والشكر لله ، مالك جميع أجناس الخلق ، لا للأوثان التى لا تملك شيئاً ، ولا تقدر على ضر ولا نفع .
قال ابن جرير^(١) : وكان جماعة من أهل العلم يأمرسون من قال (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أن يتبع ذلك (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) تأولوا منهم هذه الآية ، بأنها أمر من الله بقيل ذلك . ثم أسنده عن ابن عباس وابن جرير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ)

« قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى من الآلهة والأوثان « لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي » أى الآيات الواضحات من عنده ، على وجوب وحدته وتفرده بالعبادة « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ » أى أخضع له بالطاعة دون غيره من الأشياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ)

(١) انظر الصفحة رقم ٨٩ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيََكُونُوا شُيُوخًا ، وَمِنْكُمْ مَن يَتَوَقَّى
مِن قَبْلُ ، وَلِيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ » أى مما يرجع إليه . أو خلق أباكم آدم منه « ثُمَّ »
مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَاقَةِ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ « أى يبعثكم لتبلغوا
أشدكم ، فتتكمال قواكم « ثُمَّ لِيََكُونُوا » أى إذا تناهى شبابكم وتام خلقكم « شُيُوخًا
وَمِنْكُمْ مَن يَتَوَقَّى مِنْ قَبْلُ » أى من قبل أن يصير شيخا « وَلِيَبْلُغُوا » أى وتفعل ذلك
لتبلغوا « أَجَلًا مُّسَمًّى » أى ميقاتا محدودا لحياتكم ، وهو وقت الموت . أو لجزائكم وهو
يوم القيامة « وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى ولكي تعقلوا حجج الله عليكم بذلك ، وتندبروا
آياته ، فتمروا بها أنه لا إله غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ)
« هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ »
يكونه من غير كلفة ولا معاناة . وقد تقدم فى (البقرة) الكلام على هذه الآية مطولا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ)
[٧٠] (الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)
[٧١] (إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ)
[٧٢] (فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ » أى عن الرشد إلى النى

« الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ » أى بكتاب الله ، وهو القرآن « وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْدَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسَلُ يُسَجَّبُونَ * فِي الْحَمِيمِ » أى الماء الحار . قال المهايى : لدفعهم برد اليقين من دلائل الكتاب والسنة « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » أى يحرقون . قال المهايى : لإحراقهم الأدلة العقلية والنقلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

[٧٤] (مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ،

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » أى غابوا

فلم نعرف مكانهم . وهذا قبل أن يقرنوا معهم . أو ضللتهم استعارة لعدم نفعها لها . فحضورهم كالعدم « بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا » أى ما كنا مشركين . وإنما كذبوا لحيرتهم واضطرابهم . أو بمعنى : تبين لنا أننا لم نكن نعبد شيئاً . قال القاشانى : لاطلاعهم على أن ما عبدوه وضيعوا أعمارهم فى عبادته ، ليس بشيء ، فضلاً عن إغناؤه عنهم شيئاً « كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ » أى أهل الكفر به ، عنه وعن رحمته ، فلا يخفف عنهم العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ)

« ذَٰلِكُمْ » أى العذاب « بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ

تَمْرَحُونَ » أى بسبب فرحكم فى الدنيا ، بغير ما أذن الله لكم به ، من الباطل والمعاصى ، وبمرحكم فيها . و (المرح) هو الأثر والبطر والخملاء . وبين (الفرح) و (المرح) تجنيس بديع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ)

«أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ» أى منزل المتعظمين عن الإيمان والتوحيد ، جهنم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ

فَالْيَنَّا يُرْجَعُونَ)

«فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» أى فاصبر على جدال هؤلاء المتكبرين فى آيات الله ، وعلى تكذيبهم ، فإن وعد الله إياك بالظفر عليهم ، حق ثابت «فَأِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ» أى من العذاب والنقمة «أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ» أى قبل أن يحل بهم ما يحل «فَالْيَنَّا يُرْجَعُونَ» أى فنحكم بينهم بالحق ، وهو الخلود فى النار ، لمناسبة نفوسهم الكدرة الظلمانية ، البعيدة عن الحق ، واستحكام ملكات رذائلهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن

لَّمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ،

فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ» أى لتقف على ماوفينا لهم

من وعد النصر إياهم فى الدنيا «وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ» أى لمكان الطول . مع أن فى نبئهم ما يشاكل نبأ المذكورين . والشىء يعقبر بشكله «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ

يَأْتِي بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ « أى بأمره . وهذا رد لمقترحهم وتمنتهم فى طلب ماقص عنهم من آية^(١) (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) الآية ، بأن الإتيان بذلك مرده مشيئة الله تعالى وإرادته به . وقد شاء أن تكون الآية العظمى تنزيله ، الأكبر من كل آية ، والأعظم من كل خارقة . فهو خير الآيات وأحسنها وأقوم المعجزات وأمتنها . كما قال تعالى^(٢) (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْ مِثْلِهَا) وقال تعالى^(٣) (أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ) « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ » أى عند عدم الإيمان بالآية المقترحة ، بعد إتيانها « قُضِيَ بِالْحَقِّ » أى من المواخذة ، بعد تقرير الحجة المقترحة لهم « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ » أى فى دعواهم الشريك ، وافتراءهم الكذب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٨٠] (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

[٨١] (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ)

[٨٢] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« اللَّهُ » أى الذى لا تصلح الألوهية إلا له « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ » أى مسخرة

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٥١] .

« لَتَرَكِبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ » من الجلود والأوبار والأصواف
 « وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ » أى بالمسافرة عليها « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ » أى
 فى طريق البحر « تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ » أى دلائله الدالة على فرط رحمته وكمال قدرته
 « فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ » أى من الحصون
 والقصور والمباني والعدد والعدد « فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى مما لا يدفع به
 العذاب الأرضى ولا السماوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

[٨٤] (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُمْشِرِينَ)

[٨٥] (فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ
 فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » أى الخالى عن
 نور الهداية والوحى ، ورضوا بها عن قبول هداية الرسل ومعارفهم . واستهزأوا برسولهم
 لاستصغارهم بما جاءوا به ، فى جنب ما عندهم من العلم الوهمى « وَحَاقَ بِهِمْ » أى من عذاب الله
 « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى جزاؤه « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ
 وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُمْشِرِينَ * فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ
 الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ » أى مضت فى خلقه ، أن لا يقبل توبة ولا إيماناً فى تلك الحال
 « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » أى وهلك ، عنسد محبى بأسه تعالى ، الكافرون برهم
 الجاحدون توحيد خالقهم . ففانتهت سعادة الأبد ، والعيش الرغد . نسأله تعالى المعافاة من غضبه
 وعقابه ، والموافاة مع زمرة أحبابه . آمين .